

الاستعمار الاسباني بالمغرب : 1860 - 1956

روبدو ابركو باريس 1978 المؤلف : ميكيل مرتين

ترجمه الى العربية : محمد الشاواني

تقديم :

ان كتاب ميكيل مرتين «الاستعمار الاسباني بالمغرب» يتناول بالدرس مرحلة حاسمة من التاريخ الحديث لبلادنا . فضلا عن ذلك فانه يسد شغرة هامة عندما يركز على التاريخ للاستعمار الاسباني في شمال المغرب . ومما يزيد من اهمية هذا الكتيب كونه يتطرق لتجربة المقاومة الشعبية المسلحة للتدخل الاستعماري الاسباني في شمال ووطننا وتصدي الجماهير الريفية لاحتلال سبتة ومليلية والجزر الجعفرية . وتحظى تجربة البطل الوطني محمد بن عبد الكريم باهتمام خاص من طرف الكاتب نظرا لدورها الطلائعي في مقاومة الاستعمار في بداية العشرينات ، واعتبارا للانعكاسات التي كانت لها في اسبانيا ... وعلاوة عن ذلك ، يبرز الكاتب عدة جوانب من تاريخ بلادنا ما زالت ، ولاسباب سياسية واضحة ، في طي الكتمان .

وبعيدا عن الايديولوجية الاستعمارية ، ومن منطلق تقديمي يحلل الكاتب العلاقات المغربية الاسبانية على امتداد مرحلة غير قصيرة . وبالرغم من انتمائه للحزب الشيوعي الاسباني ، ينتقد ميكيل مرتين - وبشكل لاذع - ممارسات ومواقف اليسار الاسباني عموما والحزب الشيوعي خصوصا ، ازاء المسألة الاستعمارية . ويحاول الكاتب ، من زاوية غير تبريرية تفسير اسباب انغماس اليسار الاسباني - بعد عقد العشرينات - في سياسة استعمارية شوفينية لا تختلف في الكثير من جوانبها عن السياسة الامبريالية للبرجوازية الاسبانية . وفي نفس الوقت الذي يحلل فيه الكاتب بعض الخصائص المميزة للامبريالية الاسبانية « الفزمة » ، يحاول ربط هذه الممارسات وتفسيرها على ضوء الازدواج السياسية الاسبانية وبارتباط مع السياسة الامبريالية للدول الكبرى . وبالرغم من الازدواج التاريخي التي يتضمنها الكتاب - والتي سنحاول تصحيحها قدر المستطاع ، خلال ترجمتنا للكتاب ، وبالرغم من التفسيرات والمواقف الخاطئة ، والمثالية في كثير من الاحيان التي يطرحها الكاتب الاسباني : نعتبر من المفيد وضع هذه الترجمة بين يدي القارئ المغربي حتى يتمكن من الاطلاع على جوانب التراث النضالي لشعبنا ...

« للمترجم »

« الاستعمار الاسباني بالمغرب »

ميكيل مرتين

1860 - 1956

مقدمة :

لم يجد الاستعمار الاسباني مؤرخه بعد . والمدعش ان البحوث التاريخية تركت جانبا الممارسات الاستعمارية ، وتركزت على الاثار التي خلفتها في شبه الجزيرة أحداث المستعمرات : 1898 في كوبا ، 1921 في المغرب ... ففي أقصى الأحوال تخصص فقرة أو فصل للإشارة بشكل عابر لمميزات الامبريالية الاسبانية . والاستثناءات النادرة التي تثبت قاعدة الصمت لا تتعدى الحوظات سريعة حول المشكل الكوبي . لعل الارتجاج الذي أحدثه فقدان كوبا في اوساط المثقفين يفسر هذا الاهتمام الضئيل ومع ذلك ما زال المغرب في فمر دور الارشيف رغم انه لعب في التاريخ الحديث ابلادنا ، دورا حاسما أكثر من البلد الانتيلي .

ليس ثمة دراسة واحدة تتطرق للاستعمار الاسباني في منطقة شمال المغرب . فمن منظور استعماري توجد مواد مطبوعة تفتقر لكل دقة وتنحصر في التغذي « بالمآثر الاستعمارية » ، وسرد المعارك بشكل يصبح معه أي شبه مع الواقع من قبيل الصدفة المحض . اما داخل المعسكر الماركسي فلا يوجد ولو منشور أو مقالة حتى من النوع الرديء . وذلك يفسر جزئيا كبح ولبس اليسار ازاء المسألة الاستعمارية . لان « ما العمل » ظل بدون أساس ولا جواب ما دامت المسألة الاستعمارية غير مهضومة نظريا .

ان الصفحات التالية لا تدعي أكثر من كونها محاولة إعادة جمع للمعطيات تفكر في اشكالية الاستعمار الاسباني في المغرب . في خمسة أجزاء : التقسيم ، الاحتلال ، النهضة (1 و 2) ثم الجلاء ، نحاول وصف الميكانيزم العسكري والسياسي الذي استعملته اسبانيا لتبقي الشعب المغربي تحت نير الاضطهاد الاستعماري .

يمكن تاخيص المسألة على الشكل التالي : وجدت اسبانيا نفسها في مواجهة مجتمع منظم له حضارته الخاصة ويمتاز - رغم تخلف مستوى نموه - بحبه لحرية وتعلقه بالأرض وانسجامه وحسه الوطني . وهي خصال ظلت راسخة على امتداد حرب الاحتلال ، هذا المجتمع الذي تعرضت اطره ونخبته القيمة للتصفية لتستبدل باقناعات سلطوية مرتزقة ؛ وكان ، فضلا عن ذلك ، عرضة للتخريب الشامل والتفجير ، وعانى منذ الثلاثينات من محاولات التفنيت ، نجح في استرجاع استقلاله في خضم موجة تصفية الاستعمار التي أثارها نتائج الحرب العالمية الثانية .

وبارتباط مع ذلك يتعلق الامر ببيان كيف ان الطبقة العاملة الاسبانية

التي كانت تعارض الاستعمار بحزم حينما كان آلاف الاسبانيين يسقطون في ارييف ، لم تعرف كيف تقدر حق قدره ذلك الحليف القوي الذي كانت تمثله الحركة الوطنية المغربية ، والذي كان يرتبط عبره نضال الطبقة العاملة الاسبانية بحركة تحرير الشعوب العربية برمتها وبحركات شعوب مستعمرة اخرى . في ظل تأثير الايديولوجية الاستعمارية أدى سوء الفهم والمواقف الخاطئة التي كانت تتبناها الطبقات الكادحة والاحزاب التي تمثلها ، الى عدم ادراك ضرورة وضع حد للمغامرة الاستعمارية ؛ ليس بدافع الواجب الاخلاقي - الاممية البروليتارية - ازاء الشعوب المضطهدة من طرف الدولة الاسبانية ، وانما فوق ذلك وبالاخص لان السبيل الوحيد للملام للمصالح الوطنية الاسبانية ، ولمصلحة التطور الديموقراطي ، لان الاستعمار ساهم بقسط وافر في توليد القوى الفاشية المعادية للديموقراطية . وبعد سنة من اندلاع حربنا الاهلية كان السكان الموجودون تحت نظام فرانكو أكثر عددا من السكان التابعين لحكومة مدريد مع تساوي عدد الجيوش تقريبا . ومن البديهي حتى من زاوية علم الاستراتيجية المتداول في المقاهي ، ان من يوجد سكان معادون خلف جيشه لا يمكنه الابقاء على جيشه في ميدان القتال الا اذا توفر على جيش آخر لا يقل عددا عن الاول ، يقوم بحراسة المواصلات ويحول دون وقوع أعمال التخريب ويكافح حرب العصابات . لكن من الواضح انه لم تكن هناك أية حركة جماهيرية في مؤخرة جيش فرانكو . والمغرب هو الحالة الأكثر دلالة في هذا الشأن : لماذا لم تحدث أي انتفاضة في المغرب ؟ ان الحقيقة التي لا جدال فيها انه لم يبذل أدنى مجهود لاحداثها، لان ذلك كان يعني تحويل الحرب ثوريا . ان اقناع المغاربة كان يقتضي استقلال المغرب . ولكن ، وقعت التضحية بأحسن فرصة استراتيجية في الحرب لارضاء مصالح الدول العظمى ، وبدافع الامل الوهمي في طماننة الامبريالية الانجلو - فرنسية . رب معترض يعتقد أنه من سوء الذوق اثاره هذا الجانب من تاريخ البروليتاريا الاسبانية على أساس الظن ان هناك حقائق يجب أن تبقى ، أبدا ، في طي الكتمان . لكن ليس كارل ماركس القائل ان الحشمة شعور ثوري ؟ على كل حال ، ليس في الاحكام فضاضة بالنسبة لاحد . والرجال بنجاحاتهم وأخطائهم ماضون والوقائع باقية ومنها تغذي الشعوب تجربتها وترشد لمواجهة وحل مشاكلها بصعوبات أقل .

وقد كان من الضروري الادلاء ببعض الاحصائيات حول ما يسميه المستعمرون « العمل التمديني الاسباني بالمغرب » ، لكن ذلك مستحيل لانعدامها . وهي منعدمة لان اسبانيا لم تفعل شيئا . في سنة 1956 عند ما طرد الاستعمار الاسباني كانت نسبة الاميين أعلى منها في 1912 ، حيث فاقت 95 ٪ من السكان المسلمين . ولم تتجاوز آخر ميزانية للتعليم سنة 1955 إحدى

أقل من الخمس) من الدول في منتهى الغنى والقوة تنهب العالم كله ، - لينين .

في أواسط القرن 19 شرعت اسبانيا بتوسيعها الاستعماري في افريقيا . عندما فقدت البرجوازية الاسبانية كل ممتلكاتها الاستعمارية باستثناء كوبا والفلبين ، وجهت أنظارها الى الحصون الاستعمارية التي كانت بلادنا تمتلكها منذ عهد الماوك الكاثوليكيين . وفي سنة 1848 بعد 18 سنة من احتلال فرنسا للجزائر احتلت القوات التي انطلقت من مالقة بقيادة الجنرال سيرانو ، الجزر الجعفرية . وذلك أصل تدهور علاقات اسبانيا مع المغرب لان رد المغرب كان الضغط على سبته ومايلية . وحوالي 1851 اقترحت اسبانيا على كل من فرنسا وانجلترا عملا مشتركا ضد سواحل الريف ، لكن حرب الشرق حولت اهتمام الامبريالية الانجلو - فرنسية . ومع ذلك ، ففي 1859 اتخذت مقاومة التعسفات الاسبانية من طرف سكان منطقة أنجرة للمجاورة لسبته ، كذريعة من طرف اودونيل لغزو المملكة المغربية . وبرزت الاحداث التي طرات في الليلة من العاشر الى الحادي عشر من غشت من سنة 1859 ، اعلان الحرب من طرف الكورتيس في 22 اكتوبر بموافقة كل الاحزاب السياسية - وقبل ايام من ذلك ، كان السفير الانجليزي قد تكلف بوضع حدود التحرك الاسباني في رسالة موجهة للحكومة الاسبانية ، وذلك بالعبارات التالية :

« يشرفني ان احيط معاليكم علما بانني توصلت بتعليمات من كاتب الدولة الاول للملكة ، عاهلتي ، بان اطاب من حكومة صاحب الجلالة الكاثوليكية تصريحاً مكتوباً يكون مفاده انه اذا ما ادت الخلافات الحالية الى الحرب ، واذا ما كان لقوات صاحبة الجلالة الكاثوليكية ان تحتل طنجة نتيجة اعمال الحرب هذه ، فان احتلال الموقع المذكور سيكون مؤمناً ولن يستمر بعد المصادقة على معاهدة السلم بين المغرب واسبانيا . ان حكومة صاحبة الجلالة مضطرة للمطالبة بهذا التصريح لان احتلال طنجة سيكون ، اذا ما تم ، مناقضاً لأمن جبل طارق البريطانية » .

وبالرغم من هذا التحذير من طرف الامبريالية الانجليزية ، قرر اودونيل السير قدماً الى الامام وهو على بينة من انه لن يحقق الغايات التي كان يتوخاها . واجتاحت اركان البلاد من اقتصاها الى اقتصاها موجة من الدعاية للسياسية الشوفينية . وقد قورنت وقتها الملكة ايزابيلا الثانية بايزابيلا المسماة الكاثوليكية ، وقيل انها ستحقق في افريقيا ازادة الملكة العظيمة . ايزابيلا الاولى . ودخلت الملكة نفسها في اللعبة حين اهدت جواهرها للمشروع فذكر ان ايزابيلا الاولى كانت قد اهدت ، هي الاخرى جواهرها من اجل سفر كولمبوس . بل نطقت بقولتها « التاريخية » : « لتبع جواهري ان كان ذلك ضروريا لنجاح مشروع من القداسة بهذا المكان . ولننفق ثروتني بدون اي

وعشرين الفا ومائة وثمانية عشرة بسيطة . وكان عدد الدراسين في صف البالكالوريا يبلغ 21 فقط من المغاربة ابناء الاسياد الاقطاعيين الذين يتواطون مع مضطهدي شعبهم . ويكفي القول انه بعد مرور قرابة نصف قرن من الحماية ، لم يكن هناك أكثر من 28 طبيباً مغربياً في المنطقتين ، وكان يمكن عد المستشفيات في المنطقة الاسبانية على اصابع اليد الواحدة . وكانت تصدر II جريدة ثلاث منها في أقل من 10.000 نسخة والعشر الباقية لا تبلغ ألف نسخة . وتجسد المجهود الأكبر في اقامة 38 ميداناً رياضياً و 29 قاعة سينمائية و 60 كنيسة كاثوليكية وأربعين معبداً يهودياً . وحصيلة مجمل هذه الوضعية الاستعمارية ، وجود 16.869 مغربياً . اعمار 4.000 دون 18 سنة ، من مجموع 17.500 سجيناً يقضون عقوبات في السجون الاسبانية . وازيد من 5.000 عامل عربي كانوا ضحية قرابة 7.000 من حوادث الشغل السنوية . الامر الذي جعل المنظرين الاستعماريين يطرحون موضوعات عنصرية حول النزعة الاجرامية وللجز الفظري للسكان المحليين .

وكان من المناسب ايضاً ، القيام بتدابيل للوطنية المغربية يتطرق لمختلف مراحل تطورها . انتفاضات فلاحية ، تحريض وسط جماهير البرجوازية الصغيرة في المدن التقليدية وتدخل الطبقة العاملة ، كل هذا تمخض عن استقلال صوري محض ذي مضمون اقطاعي . وذلك لان المراحل الاخيرة من التحرير تم التوصل اليها بالتعامل مع المستعمرين اكثر من الانتصار عليهم . الا ان ذلك يتطلب عملاً جديداً ، مخصصاً للتعلم في تناقضات حركة التحرير الوطني المغربية . والمسألة معقدة بما فيه الكفاية وذات أهمية كبيرة بحيث لا يمكن تقديمها في بضع سطور . ومن هنا ياتي كوننا فضلنا كل لحظة ، اعطاء الخطوط العريضة التي توضح النشاط الاستعماري بدل تحليل اشكالية الاحزاب الوطنية .

وليس من الكلام الزائد ان ننبه القراء الى ان المحاولة مشحونة بنقط الشك ، وان كثيراً من وجهات النظر قابلة لكثير من النقاش . بعض الصفحات فيها مجازفة بينما اخريات فيها خشية وتردد . لا يمكن اعادة ملء فراغ تاريخي بين عشية وضحاها . ان الظرف الحالي الذي تجتازه الحركة العمالية والثورية يتطلب باستئجال تسليط الاضواء على النقط المجهولة مثل الموضوع الذي نحن بصدد ، وكذا على المظاهر المعروفة من التاريخ الحديث للبروايتاريا الاسبانية .

عسى ان لا تكون هذه للمساهمة أكثر من خطوة . الخطوة الاولى .
I) التقسيم :

« لقد ابرزت (الراسمالية) الآن حفنة (أقل من عشر سكان العالم . وفي أبعد حالة من « التسامح » والمغالاة في التقدير

خرج . سأنقصه من نترفي ، ان وشاحا وضيعا سيلمع في عنقي احسن من عقود الماس ان كانت هذه العقود قادرة على الدفاع عن شرف اسبانيا .

وكانت الحكومة تصرح بان وازعها ليس رغبة مسبقة في التوسع الترابي ولا اية روح غزو ، وان الهدف الذي ترمي اليه هو غسل العار من شرف اسبانيا . وحولت الصحافة صيغة المسألة كلية ، وأعطت لهذه المغامرة الاستعمارية طابع حرب صليبية مقدسة . وكانت أناشيد التحميس القومي تقول :

الحرب ، الحرب على الافريقي الجسور

الحرب ، الحرب على المغربي الكافر

الذي أهان شرف اسبانيا

فالحرب ، الحرب ، للنصر أو الموت .

ووصفت قصائد استعمارية المغربي على الشكل التالي :

همجي في مظهره

قبيحة وقذرة طلعت

كل شيء فيهم غريب

مرعب ومثير للاشمازاز معا

وان دهش فلا يتردد

يفزع ولا ينزعج

يخيل أن الجندي الاسباني

يصارع شياطين وليس رجالا .

لكن الحقيقة غير ذلك . فبعد احتلال فرنسا للجزائر ، أصبحت افريقيا أقرب وصارت تبدو خصوصا لفلحي الاندلس وشرق اسبانيا ، وكأنها جنة . في سنة 1859 كان قد استوطن الجزائر خمسون مهاجر اسباني . لم لا يتحول المغرب الذي غزاه اودونيل الى الدورادو في متناول ايدي الفلاحين الاسبانيين البؤساء ؟ . وفي كتابه المتبحر بالنصر والمعنون بومييات شاهد عيان في افريقيا حاول بيدرو أنطونيو ألكون محو هذه التساؤلات من ذهنه حيث يقول : « تحتل فرنسا الجزائر منذ ثلاثين سنة ، وتحكم الارض التي تطاها ولا تحظى بالطاعة الا حيث تمتشق حراب البنادق . وتخدم الارض وتستغلها وتحافظ هناك على جزء كبير من سكانها الموظفين في الحيوية ، وتفيدها الجزائر في الاخير ، كمنفذ لوفرة ما لديها من رجال وصناعات وأنشطة معنوية . لكن هل نحن في نفس الحالة ؟ هل لنا فائض من السكان ؟ هل نبالغ في النشاط ؟ هل نحتاج مجالات لتشغيل هذه النشاطات ؟ هل وقع انجاز كل شيء في بلادنا ؟ ليست سبرامورينا والمانتشاومات المناطق الاخرى من شبه الجزيرة خالية من السكان وغير مزروعة ؟ عواصمنا ليس فيها ما ينجز ؟ هل لدينا الى هذا الحد فائض في الاسكك الحديدية والسفن والمعامل وقنوات الري

والملاحة والموانيء الصالحة والطرق للعربا تبلى وحتى سبل صالحة للمرور؟ ... لكن اين سأتوقف ؟ مالنا وهذا كله ؟ واجبي في هذا الكتاب ليس المناقشة او اصدر احكام في في الامور وانما تسجيل الانطباعات التي تبعثها في نفسي .

في اوائل 1860 شرع الجيش الاسباني في مسيرته نحو جنوب سبتة . وبموازاة ذلك تابع الاسطول سيره عبر الابيض المتوسط مضطلعا بدور قاعدة التموين . ولم تقترب القوات من تطوان الا في الرابع من يبرابر واستولت عليها بعد يومين من هذا التاريخ . ومن القرارات الاولى التي اتخذها الغزاة ، تحويل المسجد الرئيسي الى معبد كاثوليكي ، واضعيه تحت حماية سيدتنا قديسة الانتصارات . وبعد شهر ونصف وافر انهزام المغاربة من جديد في وادراس احتل اودونيل موقع فندق عين الجديدة الهام . وبعدها اسرع المسامون للمطالبة بالسلم ، واتفق على الهدنة يوم 25 مارس . وتضمنت الاتفاقية التي وقع عليها فيما بعد ، توسيع مجالي سبتة ومايانية ، وضبط حراسة المساحات المتاخمة لسبتة والصخور ، كما تخلى المغرب عن ايفني (مع ان مفاوضينا ما كانوا يعلمون علم اليقين اين توجد) ، والتزم بدفع تعويض مالي قدره عشرون مليون ريال ، وظلت مدينة تطوان محتلة كضمانة لاداء التعويض . والحصيلة المزرية هذه ، جاءت نتيجة ضغط انجلترا التي لم تكن ترغب حينئذ ان يذهب الجيش الاسباني ابعدها مما ذهب ، واتت بها الوحدات العسكرية الاسبانية نفسها التي بينت الكيفية التي بها لا يجب القيام بالحرب . وفي مقال له لجريدة نيويورك تايمز تربيون ، عبر انجلس عن عدم فهمه كيف ان احتلال تطوان كان صعب المنال من طرف جيش من 40.000 رجل ، يقول انجلس : « اجل ، لم تكن هناك طرق جيدة ، لكن ، كيف تدبر الفرنسيون امرهم في الجزائر والانجليز في الهند ؟ . فضلا عن ذلك ، فيغال وخيول الجر الاسبانية لم تتعود الطرق الجيدة في بلادها نفسها حتى ترفض الدب على الارض المغربية » وفي تعليق صحفي آخر كتب انجلس : « لا يمكن تكوين فكرة راقية عن هذا الجيش . واذا استمر اودونيل في النهج الذي سار عليه حتى الآن ، سيسقط شرفه بنفسه ، وسيرمي شهرة الجيش الاسباني بالعار رغم اللهجة الرنانة لبلاغاته العسكرية . هناك شيء أكيد فقط : اذا دافع المغاربة عن أنفسهم خلال سنة ، فسيكون على الاسبان تعلم الكثير من الفن العسكري قبل ارغام المغرب على عقد الصلح . »

لقد حال تدخل انجلترا دون الانكشاف الفوري لقيمة الجيش الاسباني بوضوح ، وشمل بذات الوقت مقاصد مدريد الاستعمارية . لكن التاريخ سيأخذ على عاتقه تبديان صحة هذا الحكم لمستعمرينا ، خصوصا ، حين وقعت سنة 1893 واحدة من حواذك الحدود العديدة في منطقة ملبانية ، تلك الحوادث التي اظهرت بجلاء تصميم المغاربة الدائم على مقاومة الاسبان . ففي

1898 إلى وضع القضية المغربية في المقام الأول من التحرك الخارجي الإسباني ومن كل تلك الاتجاهات التي شبهها كنييفيط بدوراة الرياح ، لم يبق سوى الجنوب : التوسع عبر أفريقيا . فضلا عن هذا الواقع المتمثل في كون قضية المغرب تصدرت مشاكل الساحة محليا ، انضاف الواقع الأوروبي الذي ضغط على وتيرة الأحداث في المغرب ليؤدي الى وضع حد لنظام الاستقلال واطلاق العنان للجشع المندفع من أجل تقسيم هذا الشعب .

وكما هو منطقي ، كانت صاحبة المصلحة في التعجيل بسير الأحداث هي فرنسا التي كانت قد احتلت الجزائر وتونس ووصلت من هناك غربا الى حدود المغرب ، وتراعت لها منذئذ الامبراطورية الشمال - افريقية التي ستصبح بعد مدة واقعا قويا بفضل المجهود الاستعماري المتواصل . ومنذ 1901 أوقفت فرنسا أطماع إيطاليا في اتفاقية تخلت فرنسا بموجبها عن بلاد طرابلس كلية ، مقابل موقف مماثل لروما بخصوص المغرب . وفي العام التالي ، اقترحت فرنسا على اسبانيا اتفاقية تتترك بموجبها الأولى لنفسها النفوذ على منطقة مراكش وتخول لاسبانيا السيادة على منطقة فاس وتازة وحوض سبو وشمال البلاد كله . ولم ترد اسبانيا قبول العرض الاستعماري الفرنسي المفيد بالنسبة لها ، بسبب تخوفها من الاقدام على التصرف في ظهر انجلترا . وقد اشار توغل انجلترا في مصر اهتمام فرنسا بالسودان وارسالها بعثة القائد هرشمان الى منطقة النيل الأبيض ، تلك البعثة التي تحصنت فاشودة : الا ان تدخل الجنرال الانجليزي كنفنفيو بسرعة جعل الفرنسيين ينسحبون . وبعد ست سنوات ، عقدت انجلترا وفرنسا اتفاقية سرية تعلن لندن بموجبها انها لا ترغب في تغيير الوضع السياسي المصري ، وتتعترف ان الحفاظ على النظام في بلاد المغرب منوط بفرنسا ذات المستعمرات المتاخمة لهذا البلد على امتداد حدود عريضة . واعلنت باريس من جهتها انها لا تسعى لتغيير الوضع السياسي المغربي وانها لن تضع عراقيل لنشاط انجلترا في القاهرة . ونص البند الاخير على ان البلدين يدافعان الشعور بصداقة مخلصا لاسبانيا ، يعبران اهتماما خاصا لمصالح هذا البلد الناتجة عن موقفها الجغرافي وعن ممتلكاته على الساحل المغربي في الابيض المتوسط ، وحث البند المذكور الحكومة الفرنسية على الوصول الى اتفاقية بهذا الشأن مع الحكومة الاسبانية . لم تكن الحكومة البريطانية غير مكترثة بمن هي الدولة التي ستحل مقابل جبل طارق ، ومنذئذ كانت تفضل أن تكون اسبانيا كامة دون وزن ولا قوة اطلاقا . لكن الاتفاقية الفرنسية - الاسبانية المؤرخة بـ 13 أكتوبر 1904 تركت خارج المنطقة الاسبانية فاس وتازة وقلصت بذات الوقت منطقة نفوذ اسبانيا في جنوب المغرب ، ونصت الاتفاقية على ان توضع طنجة ومنطقتها تحت نظام خاص . ونص البند الثالث على ان الدولتين ستتدخلان في حالة عجز

انسنة المذكورة ، أصدر الجنرال مركاليو ، الحاكم العسكري لقلعة مليلية ، اوامرا لتنتقل الأشغال لاقامة حصن سيدي عرياش ، وفي نفس اليوم حطم الريفيون الأشغال المنجزة وكرروا نفس العملية في اليوم التالي . وكانت نية الجنرال المذكور تستجيب للصلاحيات المعترف بها لاسبانيا في معاهدات مختلفة ، آخرها تلك التي أوقفت بموجبها حرب 1860 ، والتي عارض الشعب المغربي دوما وضعها حيز التنفيذ . ولم يكن بالامكان تنفيذ الاتفاقيات المفروضة على المغرب بالقوة ولو بعد 23 سنة . وكانت الحرب الجديدة صورة ساخرة لمأساة 1860 المجانية . وفي أواخر السنة ، وبفعل وجود عشرين ألف جندي اسباني اضطر الريفيون الى القاء السلاح ، ووقع السلطان ، مجبورا ، اتفاقية مراكش التي التزم بمقتضاها بمعاينة مقترفي الاعتداءات ضد الاسبان . وفي نفس الوقت صدت قبائل ايفني بعنف محاولات استطلاع المنطقة . وأشرف القرن 19 على نهايته بينما ظل استعمارنا عاجزا عن تنفيذ الاتفاقيات المفروضة على السلطان . وبدأ القرن الجديد في ظل تعامل المغاربة والاسبان ، في حين يطرد الكوبيون والفيليبينيون الاستعمار الاسباني . وشهد العقد الأخير من القرن 19 تزامن نضال هذه الشعوب المستعمرة الثلاثة ضد الامبريالية الاسبانية . وقد عبر خوسي مارتني الزعيم الثوري الكوبي عن تضامنه مع الريفيين في مقال نشر في جريدة **الوطن** بتاريخ 31 أكتوبر 1893 : « أبدا لا يدعن جنس مضطهد ، أبدا ، لا يستسلم شعب احتل الاجنبي الارض الممزوجة بعظام ابناءه . لقد عاد الريف الى الحرب ضد اسبانيا . وستعيش اسبانيا في الحرب مع الريف الى تخلي بلد الريفيين المقدس .

وبقدر ما كان كل قلب شريف اسباني النبض مع بلابيو في كوفادونكة بفدر ما هو اليوم مغربي النبض مع الريف ضد الاحتلال غير العادل من طرف اسبانيا . ان اغراق شعب في بحر من الدماء او اذلاله بالذرائل لا يشكل شهادة شرعية للامتلاك لا في الريف ولا في كوبا . هناك رجي الحرب دائرة ، وليكن النصر حليف صاحب الحق . واسبانيا متورطة حيث يدور صراع غير عادل . تخسر كل ما تملك بدون شرف ، وتدخل للعمل الخاص دون وظيفة الجيش لابنائها الثواني غير النافعين واباشمها الخبثاء ومجنديها الاشقياء : هل اسبانيا الجديدة هي تلك التي تفرق اليوم المغرب في الدم ، وتدعي غدا ، وأن بدون جدوي هذه المرة ، اغراق المطامح والثقافة العليا لكوبا في الدم ؟ ما دام الاسبانيين ما يعيشون به من الأكلة الجماعية للجيش ومن رخاء المستعمرات لن يكون هناك رد فعل في اسبانيا . فلنكن مغاربة : هكذا ، وكان الحق يوجد بالجانب الاسباني ، نحن الذين سنموت هذه المرة على ايدي اسبانيا ، سنكون اسبانيين . لكن فلنكن مغاربة ! » .

أدي فقدان آخر ما تبقى من امبراطوريتنا الاستعمارية في امريكا سنة

النظام السياسي المغربي والحكومة الشريفة على الاستمرار في البقاء ، او في حالة ضعف هذه الحكومة أو وهنها المستمر عن تثبيت الامن والنظام السياسي. لكن لم يحسب لألمانيا التقيصر حسابها بيد أنها كانت تريد نصيبها . وللمطالبة به تقدم **غليوم الثاني** شخصيا الى خليج طنجة على متن الباخرة **هوهينزلون** ، ولقى أمام مبعوثي السلطان الخطاب التالي : « نأمل ان المغرب في ظل سيادة صاحب الجلالة الشريفة سيكون مفتوحا للتعايش السلمي بين جميع الدول بدون أي احتكار أو الحاق وعلى قدم المساواة المطلقة . ان هدف زيارتنا هو أن يعلم الجميع اننا مصممون على بذل كل ما أوتيت أيدينا من أجل صيانة مصالح المانيا في المغرب . وبما اننا نعتبر السلطان كامل السيادة والاستقلال ، فنحن نود التفاهم معه للحفاظ على هذه المصالح .

وسمع الصدى لتوه في اوربا ولاح شبح الحرب الاوروبية ، ولتفادي الخطر استدعي مؤتمر الجزيرة الخضراء . وكان الجدل حادا بين الامبريالييتين الالمانية والبريطانية من يناير الى ابريل 1902 . ولم ترض النتيجة ايا من هاتين القوتين . وكان الحل بين الاطروحتين المتعارضتين : تدويل المغرب أو تقسيم النفوذ بين اسبانيا وفرنسا ؛ وتدويل تلك المسائل التي تمس بالمصالح الاقتصادية العامة ، والاعتراف في المسائل الباقية بوضعية امتياز ، لفرنسا واسبانيا .

وبالرغم من أوافق الجزيرة الخضراء هذه ، ظلت اسبانيا وفرنسا عازمين على انتهاء كل الفرص المتتالية للاستمرار في التوسع بالمغرب . ففي 1907 احتل الاسبان العرائش والقصر الكبير والفرنسيون الدار البيضاء . ولما شعرت ألمانيا ان تقسيم المغرب يتم بسرعة قررت الاقدام على تظاهرة قوة على غرار ما فعلته سابقا بطنجة . وفي فاتح يوليوز 1911 أرسلت البارجة الألمانية **بفتير** في مياه اكدير ، وفي نفس اليوم سلم السفير الالماني بباريس مذكرة الى الحكومة الفرنسية يبرر فيها وجود الباخرة الحربية الالمانية في اكادير بنفس الاعتبارات التي كانت فرنسا قد بررت بها احتلال الدار البيضاء واسبانيا احتلال العرائش . ولكي يحصل الاستعمار الفرنكو - اسباني الذي كان يتأهب لغرس الموسى في بلاد المغرب على المهادنة من جانب المانيا تخلت فرنسا لألمانيا على جزء من الكونغو - الفرنسي 275.000 كيلومتر مربع بموجب اتفاقية 4 نوفمبر 1911 ، وذلك مقابل حرية التصرف في الاراضي المغربية . وبعد سنة وخمسة شهور بالتحديد فرضت فرنسا نظام الحماية على سلطان المغرب مولاي حفيظ وفي نوفمبر 1912 وقعت اسبانيا اتفاقية جديدة مع فرنسا ، ، وبموجبها صيغت بالشرعية عملهما الاستعماري تحت اسم الحماية . ومقابل أراضي الكونغو التي اضطرت الامبريالية الفرنسية الى التخلي عنها لألمانيا ، خسر الاستعمار الاسباني الضفة اليسرى لوارغة

وقطعة صغيرة محاذية لملوية والاراضي الواقعة جنوب العرض 35 . منذ نصف قرن مضى زاوج المغرب بين المقاومة المسلحة والديبلوماسية. ليس هدفنا هنا التاريخ للديبلوماسية المغربية هذه خلال مرحلة امتدت خمسين سنة ، بيد اننا سنبرز قدر الامكان طابع السياسة المغربية والجهود التي بذلت للدفاع عن الاستقلال . ان السمة التي طبع بها المغربية سياستهم هي عدم ابداء أي تفضيل لأي من الدول في المغرب ، وتنظيم الدولة المغربية في اتجاه عصري . وبفضل ذلك ظل المغرب في منحى من العدوان الاجنبي والثورات الداخلية ، بالرغم من المحاولات التي قامت بها فرنسا واسبانيا لتثبيت أقدامهما في المغرب . وباستثناء اثيوبيا التي تعرض لحرب احتلال في الثلاثينات ، فان المغرب من البلدان غير الاوروبية الفائزة التي ولجت القرن العشرين وهي تتمتع باستقلال تام . ان السياسة السديدة التي اتبعها المغرب ، دفعت الاجانب المتنافسين الى صراع جذارة شديد للفوز برضى الملك وبموافقته على بعض مطامعها ، واضطرت فرنسا ، الدولة الاكثر اصرارا على السطو على دولة المغرب وجعله يفقد استقلاله ، لبذل مجهودات جبارة لازاحة العراقيل التي تضعها الدول المنافسة في طريقها . وهكذا رأينا كيف اتفقت فرنسا سنة 1902 مع ايطاليا التي تخلت عن كل حق في المغرب مقابل تخلي فرنسا عن كل مطلب في طرابلس وليبيا . وبعد ذلك استطاعت فرنسا التوصل مع انجلترا الى اتفاقية 1904 الشهيرة ، التي بموجبها تطلق فرنسا يدي بريطانيا في وادي النيل مقابل اعتراف انجلترا بالمغرب كمنطقة نفوذ لفرنسا . وفي الأخير توجت فرنسا دساترها بتقسيم اليبلا مع اسبانيا على أساس ان تستحوذ هذه الأخيرة على شمال المغرب لحماية شواطئها . ولما توفي مولاي الحسن كان قد خلفه مولاي عبد العزيز الذي ما انفك صبيًا وقتئذ . وتابع الوزير أحمد ، الوصي ، تلك السياسة ، لكنه أوفى أجله بعد خمس سنوات . وبقي المغرب بين يدي سلطانة الشاب الذي نقصته الارادة لوضع حد لدساتر الانتهازيين الحاكمين بالقصر ، المتأمرين على الدولة والعاملين لمصلحة الاجانب ، لكن رغم كل شيء ظلت سياسة التوازن الدولي هي السياسة الخارجية للدولة حتى النهاية .

وكان من الطبيعي ان يتزايد جشع فرنسا بعد ما انضمت لصفوفها ثلاث دول طالما نافستها وعارضت مرارا تنفيذ مخططاتها . لكن ، ظلت هناك دولة رابعة ما انفكت تنتظر نصيبها ، هذه الدولة هي المانيا التي حاولت الحكومة المغربية الحصول على مساعدتها . غير ان المانيا تابعت سياسة غامضة لم تكن تهدف من ورائها لأكثر من الحصول على جزء من النفوذ الاقتصادي والسياسي في مكان ما ، ومن أجل ذلك تخلت في الاخير عن المغرب لصالح فرنسا مقابل جزء من الكونغو . ولم ينحصر الشعب المغربي في أمل العون

اعلان حقوق الانسان الذي يقر ان السيادة تكمن في الشعب ، وانها غير قابلة للتقويت ، وبذات الوقت اعلنوا ضرورة نهج سياسة دبلوماسية مفتوحة (غنية) تلك السياسة التي ستكون الحكومة العمالية - الفلاحية للينين اول من سيمارسها عشر سنوات بعد ذلك .

وبالتالي ، شكل الثاني من مايو المغربي ، 16 غشت 1907 - اول مشاركة للشعب المغربي في اسياسة ، وكانت ترمي الى تحقيق هدفين اساسيين : (I) وضع حد للمؤامرات الاجنبية والمحافظة على الاستقلال . (2) تحقيق اصلاح سياسي يقود الامة الى نظام دستوري راسخ .

تلك هي الاهداف التي شكلت المحور الذي دارت حوله كل الحركات الاستقلالية التي يومنا هذا . ولم يمض كثير من الزمن بعد هذه الثورة حينما حرر الوطنيون مشروع دستور تم نشره في جريدتهم لسان المغرب التي كانت تصدر بطنجة . وتتقوّل مقدمة المشروع الموجه الى السلطان « بما ان الوقت قد دعا الى الاصلاح ، والشعبية العصرية قد هلكت قلوبها ، وانشرحت صدرها له ، وجمالة سلطانها الجديد (عبد الحفيظ) يعرف لزومه ، فنحن لانالوا جهدا في المناداة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالاته ، وهو يعلم اننا ما قلناه بيعتنا ، واخترناه لامامتنا ، وخطبنا ودم رغبة منا وطوعا من غير ان يجلب علينا بخيل ولا رجال ، الا املا في ان ينفذنا من وهدة السقوط التي وصلنا اليها الجهل والاستبداد ، فعلى جلالاته ان يحقق رجاءنا ، وان يبرهن لكل على اهلتيه ومقدرته على ترقية شعبه ، وعلى رغبته في الاصلاح ، وجدارته بادارة مملكته امة ا

والذي نرجوه منه قبل كل شيء هو فتح المدارس ونشر المعارف ، وان يكون التعليم الابتدائي اجباريا ، وان يولي ذوي الكفاءة والاستحقاق والاهلية ويقرب اليه ذوي العقول الراجحة والافكار الحرة الراقية ، ويحترس من الوشاة والجواسيس الذين يشوهون له رعاياه ، ويحولون بينهم وبينه ، وفي بلاطه الشريف من هذه الميكروبات القتالة جيش كبير ؛ فان لم يحترس منها ويقاومها نقلت اليه جراثيم وبينة معدية . وبما ان يدا واحدة لا تقدر على انهاض شعب منا من وهدة السقوط ولا على اصلاح ادارة مختلفة كادارة حكومتنا فيجب ان تكون الايدي المتصرفة والعقول المفكرة والافكار المدبرة كثيرة متكاثفة على العمل . وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته من ان يمنح امة نعمة الدستور ومجلس النواب ، ومن اعطائه حرية العمل والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية ... »

وكان الدستور يتكون من اربعة اجزاء : يتضمن الاول القانون الاساسي للدولة ، والثاني التنظيم الداخلي للمنتدى الشورى (مجلس الشورى) ، والثالث قانون الانتخابات العامة والرابع القانون الجنائي المغربي . ان

الذي قد تقدمه له الدول المتنافسة او المتحالفة ، وانما بحث عن مخرج يحرره من جراف الاستعماريين ودسائس المتآمرين والخونة . وانطلقت في البلاد حركة وطنية بدأت تحت قيادة ماء العينين وانضمت لهذه المجموعة قبائل مختلفة وعدة قواد . وأملت هذه الحركة من مولاي عبد العزيز ان يفعل المستحيل لصد كل غزو اجنبي . وانتهى مؤتمر الجزيرة الخضراء كل المعاهدات السرية المبرمة بين فرنسا والدول الأخرى ، واعترف باستقلال وحرية المغرب ، لكنه وضع اسبانيا وفرنسا والدول الأخرى ، واعترف باستقلال وحرية المغرب ، لكنه وضع اسبانيا وفرنسا في حالة امتياز . عند تكليفهما بالقيام بعدد من الاصلاحات في الشرطة . بهذا القدر انتصرت الدبلوماسية المغربية والحركة الشعبية الى حد ما في نضالها ضد المؤامرات الفرنسية ، لان الدول ومن بينها فرنسا واسبانيا وانجلترا وايطاليا التزمت بصيانة وحدة المغرب وضمّان استقلاله . وان على الامبرياليين موافقتهم على تلك المعاهدة ؛ وان قضت على خطر داهم ، خولت لاسبانيا وفرنسا امتيازات في البلاد ولم يرد المغاربة الاعتراف لتلك الدولتين بدور متميز عن الدول الأخرى . ولان السلطان عبد العزيز وافق على الأمر عن طريق ممثليه في المؤتمر واتضح عجزه عن مقاومة التوغل الفرنسي والاسباني ، اعتبر الشعب ان الوسيلة الافضل للتحرس من الالتزامات القديمة والجديدة هو التمرد . وتصدر الوطنيون الثورة معلنين خلع عبد العزيز واعتلاء مولاي عبد الحفيظ العرش . وتم الاعلان عن ذلك في فاس من طرف الشيخ ماء العينين والسيد أحمد المواز وهما من مفكري ذلك العهد . وقد اعتبر هذا الاعلان بمثابة ميثاق وطني ودستوري من الدرجة الاولى ، فرض على الملك الجديد الشروط التالية :

- 1 - بذل كل الجهود لاسترجاع المناطق المفصولة عن الحدود المغربية .
- 2 - الاستعداد لطرد الغزاة من الاماكن المحتلة .
- 3 - الغاء معاهدة الجزيرة الخضراء التي لم يكن للشعب فيها اية مساهمة .
- 4 - العمل على الغاء امتيازات الاجانب .
- 5 - عدم استشارة الاجانب في قضايا الامة .
- 6 - عدم التداول مع الاجانب حول معاهدات سلمية أو تجارية بدون استشارة الامة .

وبهذه الطريقة ، حولت النقط الست هذه ، الملكية المطلقة الى ملكية محدودة ودستورية . وعند ذلك الحين ، لم تعد للملك سلطة عقد اي اتفاقية الا بعد استشارة وموافقة الشعب . وان التمييز بين الاتفاقيات المدنية والاقتصادية التي كان بإمكان الملك توقيعها بعد استشارة مسبقة ، له دلالة بالغة وهي تجريد الملك من صلاحية عقد اي اتفاق من شأن طبيعته ان يمس شؤون الامة . وبالإضافة الى ذلك ، يحتوي مضمون ذلك التصريح على روح

للمغرب - وبعد شهور قلائل ، كان البلاد كله - باستثناء المدن الكبرى والموانئ - المراقبة بشكل قوي من طرف الاستعمار الفرنكو - اسباني - في صراع عنيف ودؤي ، ضد الاحتلال الأجنبي ، وكانت الاقاليم المتمردة تتكون من ثلاث مناطق بالإضافة الى جباله والريف التي كانت تركز نضالها ضد الاستعمار الاسباني .

(1) الأطلس المتوسط :

تقد دارت معارك متعددة منذ 1911 حتى 1933 : ويمكننا اذا ما اعتبرناها ككل ، ان نستنتج منها أربعة مراحل ذات أهمية بالغة :

1 - 1 - اقتراب الجيش الغازي ومحاولة الوصول الى الجبال :

أ - معارك بني مطير 1913 .

ب - مقاومة تادلة الى حين احتلالها سنة 1913 .

ج - معارك خنيفرة سنة 1914 .

د - عمليات تادلة من 1915 الى 1917 .

1 - 2 - الهجوم على كتلة قبائل الأطلس المتوسط

أ - اختراق ازرو - مديلت سنة 1917 .

ب - معارك زيان وبني مكيلد سنوات 20 و 23 .

1 - 3 - الهجوم على الضفة الشمالية لوادي العبيد :

أ - مقاومة عربالة في 1926 .

ب - الهجوم على وادي العبيد في سنوات 1929 و 1930 و 1931 .

1 - 4 - الهجوم على الأطلس المتوسط :

أ - مقاومة آيت يحيى سنوات 31 - 1932 .

ب - مقاومة آيت اسحاق سنة 1932 .

ج - الهجوم على بساط البحيرة سنة 1932 .

د - معارك ملول والأطلس الكبير .

هـ - محاصرة كردوس وبادو سنة 1933 .

ز - معركة الكوسي سنة 1933 .

(2) الأطلس الكبير بجنوب المغرب :

كانت سياسة ليوطي في منطقة القواد الكبار هذه ، كانت تركز على التسامح واختداب هؤلاء القواد نظرا للنفوذ الذي يحظون به به لدى القبائل ، لكن الروح الوطنية وضعت حدا لهذا النفوذ واحبطت السياسة الفرنسية . ان فضل توحيد قبائل الجنو بيعود للشيخ ماء العينين وابنه الهبة الذي شكل حوله حركة وطنية . وقد حاربوا الفرنسيين واستولوا على مراكش ، وبعد انهزامهم لاحقا في معركة سيدي عثمان ، واصلوا - هو والقبائل التي

الهيئة المسماة منتدى الشورى تنقسم الى مجلسين : مجلس الامة ، ومجلس الشرفاء (الاعيان) ، ويشكل أعلى سلطة في البلاد وترجع وجهة نظره على الحكومية .

وجهاً النظر الاخرى ، وكان له الحق في مراقبة كل الادارات والمراكز وبقي كل هذا حبرا على ورق عند ما ضغطت الامبريالية الفرنسية على مولاي عبد الحفيظ وأرغمته على توقيع معاهدة 30 مارس 1912 التي اقيمت بهوجبها الحماية . وقد ورد في البندين الاولين ما يلي :

(1) ان الجمهورية الفرنسية وجمالة السلطان متفقان على اقامة نظام جديد في المغرب ، يحقق الاصلاحات الادارية والقضائية والمدرسية والمالية والعسكرية التي تعتبر الحكومة الفرنسية من المفيد ادخالها في الاراضي المغربية .

(2) ان جمالة السلطان يسلم ، من الآن فصاعدا ، بان الحكومة الفرنسية يمكنها ، بعد اشعار الحكومة المغربية ، احتلال المواقع العسكرية التي تعتبرها ضرورية للحفاظ على النظام والأمن وان تمارس أعمال الشرطة عبر الاراضي والمياه المغربية .

ما كاد الخبر يشيع في فاس حتى انفجر كالرعد . ساد الذعر في القبائل وحتى في القصر . وكان الشعور الاجماعي هو انها خيانة . وما يزيد من خطورتها ان مولاي عبد الحفيظ نفسه كان قد خلع آخاه عن العرش منعهما اياه ، وبحق ، بخيانة المغرب . وقد كتب الدكتور فيزبرجر وهو ملاحظ أوربي عاش تلك الأيام بقول : « ان تباشير العاصفة لم تكن ظاهرة الا بالنسبة للاروبيين القلائل المطلعين على سر الحياة الداخلية للعاصمة . في الأزمة لا يوجد ولا وجه واحد باسم . وان الاهليين يكادون لا يردون على الذين يتوجهون اليهم بالكلام ، وأصدقاء الأمس يتظاهرون بعدم معرفتنا . لكن مع ذلك ، ولا سلوك عنيف واحد يخون الشعور الذي يفلق الخواطر » .

بعد سبعة عشر يوما من ذلك تمرد الجنود المغاربة وقتلوا ضباطهم الفرنسيين ، وامتدت الثورة الى الشعب الذي تمرد بدوره وهاجم الحي الأوروبي . وخلال 72 ساعة كانت فاس مدينة حرة بين أيدي الوطنيين المغاربة . وفي اليوم 20 سحق الجنود الفرنسيون التمرد بالمدمعية الثقيلة ، وأعلنت حالة الاستثناء ، الأمر الذي أدى بالآف الوطنيين الى عمود الاعدام . وبعد شهر من ذلك ، حاصر 20 ألف مغربي من القبائل المجاورة للعاصمة ، المدينة بقيادة الحجاوي . ونجح المرشال ليوطي ، الذي عين مقيما عاما وقائدا أعلى لقوات الاحتلال ، في رفع الحصار في بداية يونيو . وخلال الصيف قدم مولاي حفيظ استقالته ، غير ان تخوفهم من أن يثير الضغائن بتصريح وطني ما ، اضطرهم الى قبولها وتنصيب مولاي يوسف جد الملك الحالي

انضمت اليه - المقاومة في الساقية الحمراء سنة 1935 .

3) تافيلالت وأيت عطا في الجنوب المغربي أيضا :

لقد دام الكفاح ضد الفرنسيين في هذه المناطق ثلاثة وعشرين سنة . وقاد السلاحي الكفاح في البداية ، وهاجمه جيش مكناس بقيادة الجنرال بونيميرو المساعد الأيمن لليوطي ، مدعما من طرف جيش آخر . وحاربته هذه الجيوش طيلة سنتين . وخلال هذه المعارك قتل الجنرال الفرنسي واستشهد الزعيم المغربي الذي خلفه أبو القاسم النقادي الذي تابع الكفاح الى ان استسلم سنة 1935 .

ان الروح الوطنية شكلت عامل لحم كل هذه المعارك التي سحقت سياسة القواد الكبار المتبعة من طرف الاستعماريين الفرنسي والاسباني كوسيلة لكسب المؤيدين وتفارقة المقاتلين . ويورد الجنرال غليوم - وهو أحد المشاركين الفعالين في الغزو الفرنسي - في كتابه : « البربر المغاربة وتهدئة الاطلس المتوسط » ، الشهادة التالية : « ان الصيغ المحببة لدى المارشال ليوطي ، « اظهر القوة لتلافي استعمالها » و « ان عملا (صالحا) يساوي كتيبة » ، لا يمكن تطبيقها بالتمام على سكان مصممين على الدفاع عن استقلالهم الى أقصى حد . ان اكثر ما يفاجتنا هو ان قبائل ونية للسلطان تمردت ضده حين ادخل الحماية ، وواجهتنا بمقاومة أقوى واصرار أكبر من مقاومة وعناد بعض القبائل التي سبق لها ان تمردت في مناسبات عديدة ، ويضيف : « اذا كانت مجهودات مديرية الشؤون السياسية محكوم عليها بالفشل ، فذلك لان خصومنا ما كانوا يترجعون أمام قوتنا الا بعد استنفاد كل وسائل المقاومة المتوفرة لديهم . وكثيرا ما ترد في ذهني أقوال المارشال بيجو هذه : انه لمن المحزن والمضحك حقا ، ما نسمعه أو نقرأه لكتابنا وخطابنا . عند ما ينصحوننا الى استعمال أساليب صالحة كوسائل لاجتذاب خصومنا ، وان نجعل العرب يحسبون بلطف تقاليدنا ومزايا حضارتنا . هذا جميل وسام بدون شك . ولقد جربته شخصيا أكثر من أي شخص . لكن ، ما العمل مع شعب يفر عند ما يقترب منه ولا يترك أمامنا الا مقاتلين أشداء يردون كلامنا العاطفي باطلا باطلاق النار » .

وفي مؤلف المشاكل السياسية والاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر كتب المؤرخ دربولط : « خلال السنوات الأخيرة ، تم احتلال كل البلدان المستقلة على وجه الارض من طرف البلدان الأوروبية والولايات المتحدة . وبسبب ذلك وقعت لحد الآن عدة معارك وبعض التغييرات في مناطق النفوذ والتي ليست سوى تباشر انفجارات أكثر فظاعة في المستقبل القريب . يجب الاسراع اذن : ان الدول التي لم تتزود معرضة لخطر عدم تسلّم نصيبها أبدا ، وعدم المساهمة في الاستقلال الهائل للعالم ، والذي يشكل احدى

الأحداث الأساسية للقرن القادم . لهذا السبب سيطرت على أوروبا وأمريكا ، خلال الآونة الأخيرة ، « حوى التوسع الاستعماري المميزة للامبريالية التي تتشكل السمة المميزة الأكثر دلالة لإواخر القرن 19 . ومع هذا للتقسيم للعالم ، ومع هذا القنص المسعور للثروات والأسواق الكبرى في العالم ، ان الأهمية النسبية للامبراطوريات التي شيّدت خلال القرن 19 غير متناسبة مع الموقع الذي تحتله في أوروبا الأمم التي سبقتها . وان الدول السائدة في أوروبا والتي تتحكم في مصيرها ، ليست سائدة بنفس الشكل في العالم كله . وبما ان النفوذ الاستعماري ، والأمل في الاستيلاء على ثروات ما زالت مجهولة ، سيكون له بالتأكيد انعكاس على المكانة النسبية للدول الأوروبية : فان المسألة الاستعمارية - الامبريالية ان شئتم - التي غيرت الآن الظروف السياسية في أوروبا نفسها سوف تدخل عليها مزيدا من التغيير في المستقبل » .

ويضيف لينين ، الذي أورد هذه الفقرة في « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ... « لقد ضخمت مستعمرات الدول الست الكبرى لحد هائل بعد سنة 1876 : أكثر من النصف من 40 الى 65 مليون كيلومتر مربع . والزيادة تبلغ 25 مليون كيلومتر مربع ، أي بزيادة النصف عن مساحة البلدان مالكة المستعمرات (16,5 مليون) . وفي سنة 1876 لم يكن لدى ثلاث دول أي مستعمرة ، اما الرابعة ، فرنسا ، فلم تكن لديها مستعمرات تقريبا . وفي 1914 ، كان لهذه الدول الأربع مستعمرات تبلغ مساحتها 1401 مليون كيلومتر مربع ، أي مساحات تزيد على مساحة أوروبا بنسبة تقارب النصف ويبلغ عدد سكانها نحو 100 مليون نسمة . ان التفاوت في توسيع المستعمرات كبير جدا . فاذا قارنا مثلا فرنسا والمانيا واليابان التي لا تختلف كثيرا من حيث المساحة وعدد السكان ، وجدنا ان الأولى في هذه البلدان قد اقتنتت من المستعمرات (من حيث المساحة) نحو ثلاثة اضعاف ما اقتنتته الثانية والثالثة مجتمعتين . لكن ، من حيث مقادير الراسمال المالي قد تكون فرنسا في بداية المرحلة المذكورة أغنى بعدة اضعاف أيضا من المانيا واليابان مجتمعتين » . من كل هذه الغنيمة الهائلة ، لم تحصل البرجوازية الاسبانية الا على بعض الفئات . بحيث من أصل 25 مليون كيلومتر مربع للوتزيغ ، تسلمت حوالي 300.000 كيلومتر مربع ، 250.000 منها كانت رمالا خالصة و 26.000 للباقية تمثل الجزء الأكثر فقرا والجبلي من المغرب : مما دفع مستعمرينا الى القول ان نصيب اسبانيا لم يكن سوى « عظم » من « الضلع » المغربي . وانها صورة بيانية صادقة بما ان الدور الاسباني كان يقتصر على ان تكون اسبانيا الكاب الحارس لمصالح الامبريالية البريطانية . ان مفتاح سر وجودنا الاستعماري في مرحلة الامبريالية ، يعطيه لينين نفسه حين يقول ، في المؤلف المذكور : ان أغلبية الدول الصغرى لا تحتفظ بمستعمراتها الا بفضل

وجود تناقض واحتكاك الخ... بين مصالح الدول الكبرى ، الأمر الذي يحول دون عقد اتفاقيات استعمارية . ومما يشدد في حالة اسبانيا ، ان المصلحة الانجليزية في ان تراقب مدريد السواحل الريفية اسندت الى كونها (انجلترا) ترغبت في تلافي استقرار فرنسا على الضفة الأخرى من مضيق جبل طارق بمعنى أنه ، من أجل صيانة أمن مستعمرة بريطانيا على التراب الاسباني - جبل طارق - قبلت اسبانيا المشاركة في تجزئة المغرب وتصفية استقلاله . وباستثناء مناجم الريف ، لم يكن هناك في التراب المغربي شيء نافع للراسمالية الاسبانية . وكان من البديهي أن غزو الريف والبقاء فيه منهكا بالنسبة للاقتصاد الاسباني الهزيل . لقد ألقت لندن وباريس عظاما بدون مادة وسارع المستعمرون الى جمعه دون أن يتساءلوا حول مردودية مثل هذه العملية . وكاستعمارية ، كشفت برجوازيتنا أنها كارثة . وكان من الممكن ان تصبح للريف بعض الأهمية السياسية، حيث انه يمكن أن يصبح كارض الميعاد بالنسبة للقطاعات الاجتماعية الأكثر انحطاطا على سواحلنا الابيض متوسطة . وبهذا المعنى يمكن القول ، أنه منذ القرن 19 لعب شمال افريقيا بالنسبة للاندلس وشرق اسبانيا الدور الذي لعبته أمريكا بالنسبة لكاليسيا . وقد أبرز لنين نفسه ، في الكتاب المذكور ، هذا الجانب من خلال خطاب الاستعماري البريطاني سيسيل رودس نفسه : « كنت أمس في الاسناد (حي العمال في لندن) وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين . وقد سمعت هناك خطابات فظيعة كاذبة من أولها الى آخرها صرخات ! الخبز ! الخبز ! . وأثناء عودتي كنت أفكر بما رأيت واقتنعت أكثر من السابق بأهمية الامبريالية ... ان الفكرة التي أصبوا اليها هي حل المسألة الاجتماعية اعني : لكيما ننفذ أربعين مليوناً من سكان المملكة المتحدة في حرب اهلية فناكة ، ينبغي علينا نحن الساسة طلاب المستعمرات أن نستولي على أراضي جديدة لنرسل اليها فائض السكان ولنقتني ميادين جديدة لتصريف البضائع التي تنتجها المناجم والمصانع . فالامبراطورية ، وقد قلت ذلك مرارا وتكرارا ، هي مسألة البطون . فاذا كنتم لا تريدون الحرب الاهلية ينبغي عليكم أن تصبحوا امبرياليين » .

بالاضافة الى هذا ، فان الجشع المهدي املك ، واندفاع بعض العسكريين ، والرغبة في اثاره اوضاع حربية لتزيين صحيفة وظيفتهم أو تسلق سلم الترقية ، والاجتذاب الذي كانت تمارسه على الاوليغارشيا الاسبانية السياسية الامبريالية لفرنسا ؛ كل هذه العوامل أدت باسبانيا الى انتهاك استقلال ووحدة الدولة المغربية . وبهذا أصبحنا نشكل جزءا من القوى الاستعمارية ، بصفة استعماريين أقزام ، لأن الثالث مائة ألف كيلومتر مربع التي سرقتها مدريد لم تكن تمثل شيئا بالمقارنة مع الثلاثين مليون لندن ، والسبعة عشر مليون لموسكو القيصرية والاحدى عشر مليون لباريس ،

والثلاثة ملايين لبرلين والنصف مليون لوشنطن ولطوكيو .

لم تبد أية بروليتاريا لبلد استعماري نفس المعارضة الصارمة التي قاومت بها الطبقة العاملة الاسبانية المغامرات الاستعمارية . ان التحريض المعادي للاستعمار الذي قام به العمال سيبقى تاريخيا ، نموذجا ومثالا عمليا للتضامن والاممية البروليتارية . وحتى السنوات الاخيرة من عقد العشرينات حيث تمكن التحالف بين الاستعماريين الاسباني والفرنسي من سحق الشعب المغربي عسكريا ، تشبثت الأحزاب والنقابات العمالية ، منهجيا ، بمعارضة الغزو الاستعماري والدفاع عن استقلال الدولة المغربية ، مسجلين بذلك صفحات بطولية في تاريخ الحركة العمالية الاسبانية وبالرغم من أن سنوات الثلاثينات قد فتحت قوس كبت فيما يتعلق بالسياسة المعادية للاستعمار هذا القوس الذي لم يغلق الى حد الساعة ، فان الحصيلة تضع الحركة العمالية الاسبانية في المواقع الاولى داخل الحركة المعادية للاستعمار . وقبل ان يتم قانونا الغاء السيادة المغربية سنة 1912 كانت كل من اسبانيا وفرنسا تحاولان خدش الميدان أينما أمكنهما ذلك وجس نبض مقاومة المغاربة . وكانت إحدى عمليات النهب هذه ، هي التي سببت حرب 1909 والاحتجاج العمالي ضدها . هذا الاحتجاج الذي بلغ الأوج فيما سمي بعد ذلك بأسبوع برشاونة الماساوي ، في بداية يونيو من ذلك العام ، وبما أنه لم يكن من الممكن الوصول الى اتفاق مع الريفيين ليسمحوا باستغلال خيراتهم في وكسان ، شرع الجيش في حماية الأعمال في المناجم . وأمام مثل هذا الاستفزاز ، هاجم المغاربة في بداية يوليو الجنود الذين اضطروا للجوء الى مليبية . وبما ان الخمسة ألف وخمسة مائة جندي والخمسة وعشرين من القادة والضباط الموجودين هناك لم يكونوا كافيين . نظمت الحكومة الارسال الفوري للواء مختلط من الفناصة وتجنيد الاحتياطيين . وتلقى الرأي العام هذه الانباء باستياء عميق ، ومما ضاعف هذا الاستياء استدعاء مجموعات من الرجال كانوا ينتمون للاحتياطي النشط والذين كانوا يعتبرون أنفسهم محررين من التزاماتهم العسكرية بعد اندماجهم في الحياة المدنية . ان الصحافة والاحزاب العمالية والمعارضة قد فضحت هذه العمليات التي لم يكن لها من دافع سوى الدفاع عن المصالح الخاصة للمؤسسات المنجمية ، ولعب دور المرقى للزمرة العسكرية . كان ذلك هو جو التحريض المعادي للاستعمار ، الى حد ان الجريدة المدريدية مراسلة اسبانيا الملكية الاتجاه نشرت الافتتاحية التالية : « من المستحيل القتال ضد بلد ، واسبانيا لا تريد أن تسمع حتى الحديث عن المغرب . وباستثناء نصف دزينة من السياسيين وبعض سماسرة البورصة المضاربين وآخرون يصطادون في الماء العكر . لا أحد يرغب في مغامرات أو استفزازات واحتلالات غير ضرورية ، ولا في حملات خارج الزمن والمكان » .

وكتب آخرون ، أكثر راديكالية مثل البيبيس : « هناك خطر نشوب حرب عبثية ولا شعبية وغير عادلة ضد المغرب . لقد وصلنا الحضيض ، لكن ليس الى حد ان نصبح المعوبة في يد متآمرين من الدول الأجنبية . انه لمن العبث والاجرام ان نقحم انفسنا في الصقن المغربي لخدمة مصالح صناعية ليست حتى لنا في غالبيتها ، مخاطرين بان تغرس في اجسامنا وأرواحنا آلاف السهام المسمومة » .

كل هذا أدى منذ اللحظة الاولى ، الى استحالة ابحار الجنود ، وأسفر عن احداث خطيرة ، في برسلونة في يوم 13 - كتيبنا برسلونة وميريديا - ويوم 10 - كتائب استيليا والفونس 12 ورؤوس - ؛ حاولت خلالها مجموعة من النساء والاطفال معارضة عملية الابحار ، وذلك بالتظاهر أو دعوة الجنود الى اللقاء السلاح ورفض القتال . ووقع نفس الشيء في مدريد حيث أدى احتلال محطات القطار والجلوس فوق السكة الى استحالة خروج قطارات الجنود من المحطات . وبهذا الانطباع كان الجنود يصلون الى مليلية ليدخلوا مباشرة الى المعركة بروح معنوية منهارة - حسب الجنرال مولا - من جراء الاحداث التي وقعت في موانئ الابحار أو خلال نقلهم عبر البلاد .

ومرت الايام ، من التاسع الى السابع عشر من يوليو ، بشكل طبيعي دون أن يهجم المغاربة . لكنهم هجموا بقوة يومي 18 و 20 مما اضطر جيش الاحتلال الى المزيد من التراجع . وحاولت حكومة مورا ، التي كانت في وضعية حرجة ، أن تعطي انطباعا أن الامر يتعلق بعمليات بوليسية بسيطة ودون أهمية كبرى ، ضد بعض قطاع الطرق . وان توقع ان على الجيش الاستعماري تحمل حرب قاسية ، سعى مورا الى طمس ذلك ، لطمانه رأي عام جد هائج . غير ان المعارك المذكورة فضحت مورا الذي لم يكن له بد سوى ارسال المزيد من الاحتياطيين ، من بينهم اللواء الاول المختلط للقتاصة ، حامية مدريد . وانفجر الغضب الشعبي الذي وصل يوم ، 21 الى حد معارضة رحيل كتائب لاس نافاس وفيكديراس بالقوة ، وذلك بفصل عربات القطار . وفي يومي 23 و 27 وقعت من جديد معارك عنيفة . وان الانطباع الذي خلفته الاخبار الجديدة وصل الى حد ان جريدة الابيض والاسود كتبت : « لقد رحل لواء آخر الى مليلية . فهل سيكون اللواء الأخير ؟ ان هذه التساؤلات نطرحها نحن الذين لا نملك مناجم في الريف ولا اسهما فيها بشبه الجزية . كما يطرحها الذين جالوا بعض الشيء عبر اسبانيا ، وشاهدوا الكثير الكثير من فراسخ الارض غير مزروعة ويمكن استعمارها . وفي غضون تصميمنا على استعمار دارنا ، نعتبر ان كل نبات الصبار الريفي لا يساوي حياة جندي واحد » .

وكذريعة (للهجوم على الريف) يظهر اطلاق النار على بعض العمال في الريف ، غير ان الدافع الحقيقي هو الرغبة في التوسع في الوقت الذي اختار

المغرب سلطانا جديدا معاديا للاستعمار وفي نفس التاريخ ، حذر بألبو الكليسياس زعيم الحزب الاشتراكي العمالي الاسباني ، في تجمع عقد بمسرح لوكس اذن : « ان يكون من الصعب أو الغريب أن يفضل أحد الجنود الاحتياطيين طعن وزير أو أية شخصية سامية بالخنجر ، وقيل الذهاب لقتل اناس يدافعون عن وطنهم بنفس الشجاعة التي دافع بها الاسبانيون عن وطنهم سنة 1808 . وفي هذه الحالة ، ان الحكومة هي عدوة الشعب الاسباني وليس المغاربة . ويجب مقاومة الحكومة واستعمال كل الوسائل . وبجل اطلاق النار الى اسفل يجب أن تطلقواها الى اعلى . واذا كان ذلك ضروريا ، سيشن العمال الاضراب العام » .

وفي نفس التاريخ ، انعقد مؤتمر الفيدرالية الكاطالونية للحزب الاشتراكي الذي صادق على الماتمس التالي : « نظرا لكون الحرب نتيجة حتمية لنظام الانتاج الرأسمالي ، ونظرا كذلك للنهج الاسباني في تجنيد الجيش حيث ان العمال هم وحدهم الذين يقومون بالحرب التي يعلنها البرجوازيون . ان التجمع يحتاج بصرامة :

1 - ضد تصرف الحكومة الاسبانية في المغرب .

2 - ضد ممارسات بعض سيدات الاستقراطية اللائي يهن الأم الجنود الاحتياطيين وزوجاتهم وابنائهم وذلك بتسليمهم اوسمة واطواقا كثفية عوضا من تمكينهم من وسائل العيش التي حرّمهم منها غياب رب الاسرة .

3 - ضد ارسال مواطنين مفيدين للانتاج الى الحرب ، وهؤلاء المواطنون ، على العموم ، غير مكترثين بانتصار الصليب على الهلال ؛ في حين يمكن تكوين فرق من الرهبان والكهنة الذين لهم مصلحة مباشرة في انتصار الديانة الكاثوليكية ، فضلا عن كونهم بدون عائلات ولا منازل ولا ينفعون البلاد في شيء .

4 - ضد موقف النواب الجمهوريين الذين لم يستغفوا حسانتهم البرلمانية لاحتلال موقع الصدارة في احتجاجات الجماهير ضد الحرب .

يهيب بالطبقة العاملة ان تحشد كل قواها اذا استازم الوضع اعلان الاضراب العام لارغام الحكومة على احترام حقوق المغاربة في الحفاظ على الاستقلال الكامل لبلادهم » .

وقمت الدعوة للاضراب العام في مجموع اسبانيا ، على ان يتم في شهر غشت ؛ غير ان شنه قد تقدم في برسلونة من القاعدة تحت صيحة : يمكنهم ان يقيموا الآن مهرجانات اذ يأخذونهم

وادى الاضراب الى الاحداث الدامية لآخر اسبوع في يوليو ، هذا الاسبوع الماساوي ، والتي بلغت اوجها باغتيال المفكر الفوضوي فيرير والحكم بالاعدام على 110 مناضل والاعتقالات الواسعة للعمال : 5000 في برسلونة ، 1700 في مطارو ، 1200 في صباديل ، 1000 في طراغونة و 300 في خيرونة ، وفي

والفنيات اوانتي كن يغنين هذا ، كن يشرفن فرحا : ولكن ، لمدة غير طويلة ،

ان الشعور الوطني لدى المغاربة ، والاحتجاج الحازم للبروليتاريا الاسبانية ، وعدم اهلية جيشنا ، ستشكل العراقيل التي ستعترض الاستعمار الاسباني ورغبته في التوسع سنة 1909 . وكان بوسع الاستعمار الاسباني استخلاص درس مفيد والانسحاب من هذه المغامرات التي لن تكون سوى منبع للهزائم ؛ ومع ذلك فضل الاستمرار محاولا فرض الحماية على من هم في غنى عنها . وعلى هذا الشكل فان الفرامل الثلاث المذكورة سابقا ستتضاعف الى حد ان ديكتاتورية بريمودي ريفيرا ، الاستعماري البارز ، ستفكر بجدية في احترام استقلال الشعب المغربي . ان درس احداث 1909 كان هو ان ليس استعماريا من يريد بل من يستطيع . ولسحق الشعب المغربي لا بد من آلة حربية اقل تعفنا وفسادا وقصورا من الآلة الحربية للجيش الاسباني آنذاك . وجريدة أ. ب. س. ، التي لا يمكن اتهامها بمعاداة العسكرية ، اكدت يوم 11 اكتوبر 1911 انها لا تستطيع ان تفهم كيف ان الجنود غير النظاميين المغاربة الذين لا يتوفرون على تنظيم عصري وليس لديهم تجهيز ملائم أو قيادة كفئة ، يمكنهم توقيف جيوش أوروبية يفترض انها حسنة التدريب جيدة التنظيم ومجهزة بشكل مناسب . وكان القادة العسكريون يصطدمون بصعوبات كثيرة لتفسير المأزق الذي آلت اليه الحرب ، وسبب كون جيوش الاحتلال دون مستوى المهمة القمعية الضرورية . انها تساؤلات غير جديدة ، كانت قد طرحت ويطرحها وسيطرحها دائما المضطهدون من كل نوع . وكان للاحتجاج الشعبي من البعد والحدة والامتداد الى حد ان كونت رومانونيس ، وهو أحد الذين استثمروا كثيرا من المال في مناجم المغرب والذي كان ينفي باصرار ان الاعمال العسكرية كانت تباشر لحماية مصالحه الشخصية ، اعترف انه وقع تصديق هذه الاشاعة الى حد ان فلاح مزارعه الضخمة في كوادالخرا يظنون ان الجنود يموتون من أجل صيانة املاك الكونت . شيء من نوع المحاكاة الساخرة الحالية للحظة دعائية في التلفزة : « ان الجبل يحترق ، ان شيئا لك يحترق يا سعادة الكونت » . ولكن بجدية :

ان النتيجة المنطقية قد استنتجتها الجريدة المذكور مراسلة اسبانية ، الرجعية الملكية ، حينما فضحت وأشارت بأسلوب مستقبلي ونبرة تنبؤية ، للأخطار التي يمكن ان يحملها للملكية غزو المغرب : « اذا كان البلد يدرك اننا سنتمكن من حل مشكل ما باحتلال المغرب لتحم لسياسة استعمارية ؛ لكن بما انه يعلم اننا ذاهبون الى المغرب دون ان نعرف لماذا ومن أجل ماذا ، فان البلد لا يتقبلها . لنفترض ان جنودنا قد خرجوا من مليلية واحتلوا 10 ، 20 ، 30 ، او 100 كياومتر ، وانها محتلة الآن . ولكن لماذا ؟ اذن من أجل لا شيء .

نفس الوقت مني جيش الاحتلال بهزيمة كبرى في وادي الذئب على سفوح جبل كروكو . ولم تتجاوز هذه الهزيمة الا الانتصارات البطولية للمغاربة في أنوال وجبل عرويت سنة 1921 . لقد أدى قصور القادة العسكريين الى سقوط فيلق من الفناصة بكامله في كمين نصبه المغاربة . وقتلت تقريبا كل العناصر المكونة لهذه الوحدة العسكرية بما فيهم القائد العسكري الذي كان يقودهم ، الجنرال كيرموبينتوس . واعترف وزير الحرب ان حوالي الف اسباني لقوا حتفهم ، بينما لا ييوج بعض الصحفيين الاستعماريين ، مثل فيكتور روبيس البينيس ، الا بزهاء 300 خسارة في الأرواح في الصفوف الاسبانية .

هذه الهزيمة المدوية فتحت قوسا من الهدوء حتى بداية الخريف ، واستفادت منه مدريد لارسال تعزيزات . ويمكن تقدير عدد الجنود الموجودين في مليلية في نهاية الصيف بحوالي 40.000 جندي . وقررت الحكومة الاسبانية احتلال جبل كروكو لابعاد المغاربة من ضواحي المدينة . واستؤنفت العمليات يوم 21 شتمبر عند ما هوجمت قبيلة بني شيكار شمال مليلية ، واحتل في اليوم التالي سوق الأحد ، وانتقل الجيش بسرعة نحو الجنوب واحتل الناظور يوم 25 وسوان يوم 27 ، الأمر الذي أدى الى تطويق الجبل الذي تم الاستيلاء عليه يوم 29 شتمبر . ان معالم الكيفية التي تصرف بها الجيش الاسباني يمدنا بها دعاية من أكبر دعاة الاستعمار الاسباني شهرة حين يكتب ان « هذه العمليات تشكل درسا معبرا ، وان لم يستفد منه الا قليلا ، لما يجب ان تكون حرب المغرب ، معاقبة النائرين بضربهم في مصالحهم المادية ، واحراق القرى واتلاف أو مصادرة المحصول أو المطامير . والشرط الاول لبحث موضوع الخضوع هو تسليم العتاد الحربي واحتجاز رهائن للتأكد من نية البلد » .

ونشرت إحدى الجرائد الاستعمارية في ذلك العهد ، الافتتاحية التالية : « ان سياسة الخبز والعصا هي السياسة الوحيدة المتيسرة وذات النتائج العملية والتي يمكنها ان تجعل هؤلاء القوم الجهلاء يدركون ان أمن ديارهم لا يمكنهم الحصول عليه الا اذا انصاعوا لقيادة ممثلي اسبانيا المحترمين واذا وضعوا ثقة عمياء في اسبانيا . ان المكافاة والعقاب بشكل عام : العقاب في البداية وبعده الجزاء ، يشكلان وسائل مؤكدة النجاح للاجتناب » لقد شكل بلوغ المرتفعات الواقعة جنوب جبل كروكو في نهاية نوفمبر ، نهاية هذه الحملة . وان خطط الاستمرار في الحملة ومشاريع الانزال في الحسيمة قد تم التخلي عنها امام المقاومة المغربية الضارية والاحتجاج الشعبي الاسباني والجهل المطلق لتلك الأراضي .

لا اغتسل ولا امشط شعري

ولا اضع رابطني الزرقاء

حتى يعود خطيبي من الاستيلاء على الكروكو .

قطعا ، من أجل لا شيء ، ان لم يكن من أجل تبذير نحو مائة مليون. نحن في امس الحاجة اليها هنا بينما لن تصلح لشيء هناك . سيموت بعض الجنود ، وسيبقى آخرون ، وسنبين مرة أخرى اضطرابنا . وللمرة المائة ، سنشير للسخرية عند ما نسمي اطلاق النار مناوشة والمناوشة عملية حربية ، والقاء فصائل الاستكشاف قتالا ، والقتار معركة مواجهة . سنبعث عددا من الجنرالات يفوق عدد العقدا ، وعدد القادة العسكريين سيفوق عدد الضباط ، وعدد الضباط سيفوق عدد الجنود . ان الوعود ، أكثر من الحقائق ، والمشاريع أكثر من الأفعال . وحصيلة كل هذا اننا سنظفر بشيء واحد : دماء الشعب وأموال ممول الضريبة .

لم لكذب اذا كانت الحقيقة هي هذه ؟ لماذا نخدع انفسنا بأوهام مثيرة للسخرية اذا كانت الأشياء ما هي عليه وليست ما يراد ان تكون ؟
فلا تنسى الحكومات التي تحكم والملوك الذين يحكمون هذا : ان الذهاب الى المغرب ألف مرة ، أخطر من عدم الذهاب اليه .
ان الذهاب الى المغرب يعني الثورة . وعند ما أقول ذلك أخدم الوطن ، والملك أفضل مما لو جعلت الملك والوطن يظنان ان الذهاب الى المغرب يناسب الأمة والملكية .